الدين كعامل أساسي في حياة الإنسان:
النشأة والأصول من الأساطير القديمة إلى العقائد الراسخة
– معتقدات شبه الجزيرة العربية نموذجا–

الطالبة الباحثة أسماء رابحي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب سايس
المغرب

تمهيد:

شكل الدين* موضوعا دسما تجاذبت أطرافه مختلف العلوم الإنسانية وذلك لالتصاقه الشديد بالإنسان والمجتمع باعتبارهما موضوع بحث هذه العلوم وباعتبار الدين سمة متأصلة في الإنسان موجودة في صلب كل مجتمع إنساني وليس مرحلة عرضية من تاريخ البشرية، يقول هنري برجسون Henri Bergson : "لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من دون علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بغير ديانة"[1]. فالدين ظاهرة ميزت الجماعات الإنسانية منذ بداية تكونها، وهذه حقيقة تثبتها الدراسات التي اهتمت بالتنقيب في أسرار الحضارات القديمة الشعوب البدائية. فإلى أي حد تعتبر فكرة الدين متأصلة في النفس البشرية وعريقة في القدم؟ كيف بدأت فكرة الدين وكيف اكتشف الإنسان القديم احتياجه النفسي والروحي للدين؟ وهل فعلا لم يقم أي اجتماع بشري إلا وهو متشبع بفكرة الدين؟ هذه الأسئلة وغيرها اجتذبت فضول الفلاسفة والمفكرين وعلماء الأديان خلال مختلف الأزمنة والعصور، وهي أسئلة أجوبتها تهم الإنسانية جمعاء.

الدين باعتباره حاجة متأصلة في الإنسان:

كي نتوصل إلى معرفة حقيقة الظاهرة الدينية وتتبع أسلوب تشكلها ، من الضروري الشروع في الانتقال إلى بدايات التاريخ ، فالتحليل التاريخي هو أداة التفسير الوحيدة التي يمكن من خلالها فهم أصل تدين الانسان ، يقول إيميل دوركهايم : "كلما شرعنا في شرح أمر إنساني، مأخوذ في لحظة معينة من الزمن – أكان معتقدا دينيا أو قاعدة أخلاقية أم تعليمية قانونية أم تقنية جمالية أم منظومة اقتصادية– وجب البدء بالعودة إلى أكثر أشكال ذلك الأمر بدائية وبساطة، والسعي إلى إبراز الخصائص التي يعرف نفسه فيها في هذه الحقبة من وجوده، ثم إظهار كيف تطور وتعقد شيئا فشيئا، كيف أصبح ما هو عليه في اللحظة المعينة ."[2]

ومنذ أن وصف الإنسان بالعاقل واكتسب الخصائص الإنسانية التي نحن عليها الآن كان الدين سمة أساسية لصيقة به ميزته عن غيره من الكائنات، فإذا ألقينا نظرة على مختلف الحضارات الإنسانية المعروفة من أعرقها إلى أسبقها في حلبة الحضارة إلى أكثرها تأخرا وتوغلا في التوحش وبدائية (Primative) ... سنلاحظ أنه كان هناك دين لكل منها تتبعه وتتمسك به واله تعبده وتستنجد به، وإذا رجعنا إلى تلك المعتقدات أو الأديان لوجدنا أن حتى أكثر الشعائر همجية وغرابة وأكثر الأساطير إثارة للعجب ، تحمل في ثناياها وتترجم حاجة إنسانية ما في الحياة الفردية أو الجماعية.

والذي ينبغي التأكيد عليه أن الإنسان على مر العصور ترك لنا مؤشرات وعلامات[3] تدل على وجود بوادر دينية، وهو ما دل عليه التنقيب حيث اكتُشف أن الإنسان حتى في أدوار ما قبل التاريخ كان متدينا، فإذا كان تأهيل النار يعتبر نقطة الفصل التي ميزت إنسان العصور الحجرية عن أسلافه من الحيوانات بحيث أعتبر الإنسان الحجري "بشرا كاملا"، فإنه تأكد أن هذا الإنسان كان لديه–بشكل أو بآخر – هذا الهاجس الديني وإن كان يصعب تحديد ماهية هذا الدين أو طقوسه، يقول ميرسيا إلياد: "إذا كان أهل العصور الحجرية قد اعتبروا كبشر كاملين فيستتبع ذلك أنهم قد امتلكوا معتقدات ومارسوا بعض الشعائر، لأنه –وكما ذكرنا– أن تجربة المقدس تشكل عنصرا في بنية الشعور (...) غير أنه من المتفق عليه اليوم حول أناس العصر الحجري كان لديهم دين فإن من الصعب إذا لم يكن عمليا من المستحيل تحديد ماهية هذا الدين "[4]. الشيء الذي يؤكد لنا أن الفكرة الدينية عاشت ولا تزال تعيش في المجتمعات البشرية بكل أصنافها وهي مندمجة بالإنسان منذ أول نشأته.

إن الإنسان "العاقل" انشغل بشكل كبير بمعرفة منشئه ومصيره وأسرار الكون المحيطة به، ولم يكن فضوله هذا في بداية الأمر لأجل المعرفة في حد ذاتها ولكن كان بدافع الحيرة، فالإنسان آنذاك كان حائر الإدراك تجاه ما يحدث من حوله من مجموع الظواهر الطبيعية وسيرورة الكون ، فقد وقف عاجزا أمام سر الموت الذي يخطف الناس من حوله، وأمام العواصف والأمطار والصواعق التي تقلق مضجعه وتفسد أحيانا ما زرعه، يقول فولتير: " مع مرور الوقت، تم تشكيل مجتمعات إنسانية خاضعة للرقابة إلى حد ما، حيث تمكن بعض أفرادها من التفكير. فبعد أن فجع الإنسان بشكل ملحوظ بوفاة والده، أو شقيقه، أو زوجته، وبدأ يرى من مات في منامه مرتين أو ثلاثة (...) هذا الرجل الميت الذي قضمته الديدان يظهر من جديد، هو شيء اذن كان فيه؛ إنها روحه، ظله، إنه طيفه. هذا هو المنطق الطبيعي للجهل بعدما يبدأ في التفكير وفهم الأمور."5 ، فمن الصعب أن نتصور أن الذهن البشري قد عاش في مرحلة ما دون أن يبحث عن معنى للأشياء من حوله وهو ما اعتبره ميرسيا إلياد "أمر يرتبط ارتباطا حميما باكتشاف المقدس"[6] فطبيعة الإنسان تدفعه إلى البحث عما يتجاوز ظاهر الأشياء وسطحيتها، فهو تواق دائما إلى ما هو أبعد من المعنى البسيط، ومن هنا يمكن أن نقول بدأ التفكير الديني عند الإنسان، ذلك أن الدين كان يمثل الجهاز التفسيري المقنع الذي يسمح بتعدد التأويلات وتنوعها.

شكل الدين اذن واحة الاستقرار والأمان للإنسان الهائم، وتعددت أشكال تدينه باختلاف العصور وتنوعت الشعائر والمعتقدات بتنوع الجماعات وتباين الأفراد، حيث عبد الإنسان أرواح الموتى من أسلافه، وأله مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنار والرعد والعاصفة والظلام واتخذ منها آلهة خير وشر، و أمسى وثنيا وعبد الأحجار والأشجار، ثم توسل إلى قوى خارقة تقع خارج الحيز المكاني والزماني الذي يعيشه، كما صار يعبد آلهة متعددة يتقرب إليها بالصلوات ويتقي شرها بالقرابين والنذور...

أهم النظريات والآراء التي ناقشت الظاهرة الدينية عند الإنسان:

حاول عدد من الفلاسفة والسوسيولوجيون والأنثروبولوجيون والاثنولوجيون من مختلف الاتجاهات والمشارب تركيب صورة نشأة الاعتقاد الديني عند الإنسان، فهناك من قال بوجود جماعة إنسانية أولى انعدم فيها كل أثر ديني* وهناك من قال بأن الدين فعل إنساني بحت ، ومنهم من قال أنها أمر فطري في الكائنات، ومنهم من قال أن الديانات وفعل التدين خضع إلى التطور مثلها مثل الأفراد والمجتمعات...

وقد اهتم العلماء في عصر النهضة الحديث بالبحث عن أصل الأشياء، و كان ذلك في بداية الأمر يعتمد على البحوث التجريبية حيث بدأ بالسؤال عن أصل الانسان البيولوجي وتطوره لينتقل بعد ذلك السؤال عن أصل دينه وتطور معتقداته مما جعل البحث

يأخذ يشتمل على علوم جديدة (العلوم الإنسانية) ومما عزز العناية بهذا السؤال نشأة علم الاجتماع وتنوع موضوعاته وقضاياه وتشكل مناهجه.

و أدى الاهتمام بسؤال الدين إلى ظهور نظريات عديدة تبحث بالخصوص في قضايا المجتمعات الانسانية وتحاول تفسيرها وبيان دورها وعلاقاها داخل المجتمع، وسنحاول أن نعرض فيما يأتي لأهم النظريات التي اهتمت بنشأة الدين.

يلخص سامي النشار[7] النظريات الدينية في اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول : وهو اتجاه ينبني بالدرجة الأولى على نظرية التطور فكما أن التطور يسود الحياة البيولوجية للإنسان فإنه يسود أيضا الحياة الدينية، ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن فكرة الدين وجدت في المجتمعات الأولى بشكل عقائد انبثقت إما من الأفراد وإما من الجماعة، فالدين بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه من صنع الإنسان، وتجد هذه الفكرة سندها في الأبحاث الأنثروبولوجية والأثنولوجية وغيرها من الأبحاث الانسانية وقد تركزت أهم وجهات نظر هذا الاتجاه في النقط التالية:

- الدين من صنع الإنسان وقد وجد في صورة جماعية أو فردية.
- أساس هذه النظرية فكرة التطور في سنن البشرية وفي قوانينها الاجتماعية. والدين تطور مع مراتب الانسانية
- تتكون هذه النظرية من مذاهب متعددة أهمها: الذهب الحيوي Animism* والمذهب الطبيعي Naturism* والمذهب التوتمي/الطوطمي Totémism*.

أما الاتجاه الثاني فقد نادوا أصحاب هذه النظرية بفطرة فكرة الله ففكرة الله عندهم هي فكرة فطرية وجدت في عقل الإنسان ولكن أوجدها فينا موجود أعلى. ويذهب أصحاب النظرية الفطرية إلى القول بأن:

- للدين حقيقة خارجية منفصلة عن الجماعة وعن الكون كله، وتلك الحقيقة هي التي زرعت فينا فكرة الله.
- الدين غريزة في باطن البشرية وفطرة أساسية لا مناص من الاعتقاد بها أو معرفتها.
- تستند هذه النظرية إلى الحقيقة الوجودية الثابتة فلسفيا (فكرة الخلق/ الصنع).
- تستند على فكرة الخلق المباشر والصانع الأوحد والمدبر القديم.
- يمثل هذا الاتجاه المذهب المؤله عند شميت ولانج وغيرهما.

وكما ذكرنا فقد اهتم عدد كبير من العلماء من مختلف المجالات بالدين ، كما توقف كبار الفلاسفة ومنظري علم الاجتماع الكلاسيكي طويلا متأملين معنى الدين ووظائفه داخل المجتمع، وأشهر هؤلاء:

- أوجيست كونط: وينطلق من فكرة أنه إذا كانت الكائنات الحية تتبع قانون تطوري وثابت وكوني فمن المشروع افتراض أن ذلك القانون متاح أيضا على مستوى ذهني واجتماعي ونفسي، وبالنسبة له فإن المجتمعات تتطور عبر مستويات ثلاث ؛ "بحسب قانون الحالات الثلاث يتطور المجتمع انطلاقا من مستوى أول (لاهوتي أو خرافي أو وهمي) إلى ثان أوسط (غيبي أو مجرد) إلى ثالث نهائي يتوج بانتشار العقلانية العلمية ، الاختتام بالتأكيد، هي المرحلة (الوضعية أو العلمية) "[8]
- إميل دوركهايم: يعد دوركاهيم من رواد المدرسة الاجتماعية في نشأة الدين. وفي رؤيته للدين اعتبر أن المجتمع مصدر كل تدين، فنشأة الدين بالنسبة لدوركهايم تنطلق أساسا من ملاحظة المجتمعات البدائية التي تقوم على نظام القبيلة أو العشيرة، حيث يعمل الدين على تماسك وتوحيد المجتمعات، ويكون ذلك من خلال اجتماعها حول التوتم وهو محط تعظيم وتقديس، إذن فالدين بالنسبة لدوركهايم يمثل عقيدة وقيم وممارسات مشتركة تعزز التضامن الاجتماعي، لذلك " فالدين هو قاعدة ورابطة تشد أزر

المجتمع، يوحي بقوة الاعتقاد وجود مجموعة من القيم المتعالية اجتماعيا، وفقها يتأسس نظام الموجودات، ومن هنا تكمن أهمية الطقوس ودورها في بث اليقظة الدائمة في هذا الوعي الجماعي الأصيل"[9].

- كارل ماركس: وقد جاء اهتمامه بالدين بطريقة ضمنية منذ بداية مشواره الفكري، حيث اعتبر كارل ماركس الدين ظاهرة اجتماعية تنشأ من الحاجات المادية للناس فهو ليس صفة ملازمة للإنسان أي أنه لا يولد معه، بل هو مجرد تخيلات وأوهام يتخيلها الإنسان في ظروفه القاسية ليهدئ بها الآلام والبؤس الذي يعاني منه أفراد مجتمع ما ومن هنا جاءت قولته الشهيرة "الدين أفيون الشعوب".

وحسب السياق الذي عاش فيه كارل ماركس (الثورة الفرنسية) يرى أن الدين نتاج للظروف الاقتصادية والاجتماعية ، وأنه أداة يستخدمها الرأسماليون كوسيلة للتحكم في الطبقة العاملة البروليتالية وهو بذلك "ليس سوى الانعكاس الواهم في دماغ البشر للقوى الخارجية التي تسيطر على وجودهم اليومي، هذا الانعكاس الذي تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق أرضية."[10] وبشكل عام يرى ماركس أن الدين يعمل على إبقاء الطبقة العاملة في حالة تبعية وعدم تحقيق الحرية الحقيقية وتخفيض مستوى التوعية لدى الفقراء.

- فريدريك هيجل: يمثل هيجل النظرية الفلسفية للدين، ويدرس الدين ضمن دراسته لجدل الروح المطلق، يقول :"وعلينا أن ندرك الحقيقة الكامنة في وجهة النظر الحديثة ألا وهي أن (الله) لا يجب النظر فيه بمعزل عن الروح الذاتية ، وعلى أي حال فإن هذا ليس على أساس أن(الله) هو (مجهول)، بل لأن (الله) هو جوهريا (الروح) وهو يوجد (كروح) (تُعرف). وهكذا لدينا هنا علاقة (الروح) (بالروح). وهذه العلاقة (للروح) (بالروح) تكمن في أساس الدين "[11] و يرى هيجل أن الدين مر بثلاث مراحل كبرى هي:

الديانة الطبيعية أو دين الطبيعة : يقصد بها هيجل ذلك الدين الذي يقود إليه العقل وحده دون حاجة إلى الوحي "وهو يضع تحت عنوان الديانة الطبيعية جميع تلك الديانات التي لم تستطع فيها الروح السيطرة بعد على الطبيعة، ولم يُعترف بعد بالروح على أنها الكائن الأسمى والمطلق "[12] ويوجد الدين الطبيعي في بدايته على صورة الديانة المباشرةImmediate Religion أو السحرMagic، ثم تنتقل إلى ما يسميه الديانة الجوهرية والتي تنتج عن انقسام الوعي داخل الذات حيث يتم تصور الله على أنه جوهر، "وهناك تلاث مراحل لديانة الجوهر هي الديانة الصينية، والديانة الهندوسية، والديانة البوذية"[13] ويعتبر هيجل أن انتقال فكرة الجوهر إلى فكرة الروح تبدأ في الظهور خلال ثلاث ديانات أخرى هي : الديانة الزرادشتية، الديانة السورية، الديانة المصرية.

الديانة الفردية الروحية: يرى هيجل أنها تضم ثلاث ديانات هي : اليهودية واليونانية والرومانية، وفي هذه الديانات تسمو فكرة الروح على كل تجسيد حسي، حيث نتقدم من الجوهر إلى الروح

الديانة المطلقة المسيحية: وجد هيجل الحقيقة المطلقة في المسيحية.

لقد درس هيجل في كل مرحلة من المراحل ماهية الإله حيث ينتقل هذا الإله من جوهر فارغ ومجرد ثم ذات أو روح إلى أن يكشف عن نفسه بوصفه روحا عينيا في الديانة المطلقة المسيحية.

من خلال دراستنا لهذه النظرية لا يمكن أن ننكر ملاحظتنا للتحيز الإيديولوجي الهيجيلي الواضح للدين المسيحي . ومما يدعو للاستغراب أيضا أن نرى هيجل يغض الطرف عن الدين الإسلامي وإسقاطه من كل مراحل نشأة الدين رغم أنه أشار إليه في مواضع متناثرة.

- سيغموند فرويد: درس فرويد الدين من خلال منظومته الفكرية النفسية، حيث تناول هذه الإشكالية في العديد من كتبه ولعل أهمها (مستقبل وهم) و(الطوطم والتابو).

ويرتبط الدين عند فرويد ارتباطا كبيرا "بالوهم" ويعبر أحدهما عن الآخر وهذا الوهم يأتي انطلاقا من تجربة الإنسان الفردية في مرحلة الطفولة –كما سيأتي توضيحه–.

كما لا تنفك الظاهرة الدينية عند فرويد عن كونها نوع من العصاب الجماعي اللاشعوري، فهو يقول :" هذا لا يعني أنني لست مقتنعا بصحة استنتاجاتي، فمنذ ربع قرن ، منذ "التوتم والتابو" لم أغير وجهة نظري، بل على العكس، لم تزد قناعتي إلا تأكيدا. لا تزال لدي ثقة بأن الظواهر الدينية مقرونة بأعراض عصابية فردية، وهي أعراض معروفة جدا كتكرار لأحداث مهمة وقعت منذ زمن بعيد منسي، من التاريخ البدائي للبشرية. "[14] فالشعور الديني عنده مرتبط بشدة بالأعراض العصابية للفرد، والدين عنصر شامل لكل فرد في الجماعة وهو الذي يؤطر الفكر البشري ويحل محل كل حقيقة ممكنة في التاريخ. وعموما فإن نشأة الدين في نظرية فرويد تولدت في بداياتها من خوف الإنسان من الطبيعة والقوى الداخلية لغريزته وعجزه عن مواجهتها ، يقول إيريك فروم في تحليله للظاهرة الدينية عند فرويد "وينشأ الدين في مرحلة مبكرة من التطور الإنساني عندما لم يكن الإنسان يستطيع أن يستخدم عقله بعد في التصدي لهذه القوى الخارجية والداخلية ولا يجد مفرا من كبتها أو التحايل عليها مستعينا بقوى عاطفية أخرى وهذا بدلا من التعامل مع هذه القوى عن طريق العقل، يتعامل معها بعواطف مضادة بقوى وجدانية أخرى تكون وظيفتها هي الكبت أو التحكم فيما يعجز عن التعامل معه عقلانيا. "[15] ويربط فرويد هذا الوضع بالخوف الذي تعرض له الإنسان في طفولته حيث يقول: "ذلك أن هذا الوضع ليس بالجديد، بل له نموذج بدئي، طفلي، لا يعدو أن يكون في الواقع استمرارا له. فقد سبق لنا أن وجدنا أنفسنا في ضائقة مماثلة حين كنا أطفالا صغارا في مواجهة أهالينا وطانت لنا دواعينا لنخشى جانب هؤلاء، ولا سيما والدنا، وإن كنا متأكدين من حمايته لنا من الأخطار التي نهابها يومئذ. "[16] وهنا نجد أن كل حالة إيمانية عند فرويد تنطلق من الضغط والخوف.

وقد اعتبر أيضًا أن الدين ينبع من عقلية الطفولة والعلاقة بين الطفل ووالديه وبذلك يعقد فرويد مماثلة بين الدين والطفولة حيث اعتبر أن الإنسان ينشئ صورة لله تشبه صورة الأب، وهذه الصورة توفر الأمان والحماية والقوة، فهو بذلك يشبه عبادة الفرد لإله ما (الاله الشخصي) بطاعة الفرد لأبيه فنجده يقول: " لكن يتضح لنا من الفحص التحليلي للفرد بمنتهى الجلاء أن إله كل إنسان هو صورة أبيه وأن الموقف الشخصي لكل فرد إزاء الإله منوط بموقفه إزاء أبيه المادي، ويتنوع ويتبدل طردا مع هذا الموقف، وأن الإله ليس في صميمه سوى أب ذي مكانة أكثر رفعة. "[17] ففطرة الطفل توجهه دائما إلى أبيه وأمه في حالات الخوف والفزع، والطفل دائما يشعر أن أبويه –أو أحدهما– يمتلك المعرفة الكاملة والحكمة الكاملة والقدرة على التدبير ... وهذه هي نفسها التي ينسبها المتدين لأربابه الأعلين. وفي هذه المرجلة ينتعش العصاب الجماعي بفعل الدين. و يقارن فرويد أيضا بين الدين وبين عصاب الانحصار Névrose obsessionnelle لدى الأطفال، والذي يربطه بعقدة أوديبComplexe d'Oedip [18] وخلاصة القول فإن الدين عند فرويد له –بالضرورة– بعدين لصيقين به وملازمين له لا ينفكان عنه هما الوهم L'illusion والعصاب Névrose؛ الأول هو الذي يجعل الإنسان يصنع عوالم افتراضية وبالتالي يخلق لديه الوساوس والمخاوف التي تدفعه الى التدين وتعزز شعوره بالدين.

أما الثاني فهو حالة نفسية مرضية يمر بها كل إنسان في فترة من فترات حياته والدين هو عرض من أعراض هذا المرض وهو الذي يهيئ للفرد ويسمح له بأن يعيش هذه الحالة، ويتشاركها مع الجماعة التي يعيش وسطها.

تلك هي إذن أبرز النظريات المقترحة والمفترضة في تفسير نشأة الدين، وقد حاولنا أن نسوق أراء من مفكرين وفلاسفة يمثلون مجالات مختلفة (اجتماعية، اقتصادية، فلسفية، نفسية...) من أجل تكوين رؤية متنوعة وشاملة –إلى حد ما– .

ومن خلال عرضنا لأهم هذه النظريات يمكن تسجيل مجموعة من الملاحظات:

✓ ترجح هذه النظريات فكرة أن الدين كان نتيجة لحاجة الإنسان القوية لتفسير الظواهر والأحداث الغير مفهومة من حوله، فكان الدين بمثابة نوع من التفسير الذي يوفر إجابات عن أسئلة كونية مقلقة.

✓ تقدم أغلب النظريات تفسيرا محدودا للدين فكل من هؤلاء يفسر الظاهرة الدينية انطلاقا من المادة التي توفرت لدية، وقد يغفل عن التنوع الكبير بين الثقافات والديانات وعن اختلاف أشكال التدين على مدى التاريخ القديم، فالدين ليس ظاهرة ثقافية واحدة محصورة في زمن أو حقبة معينة وليس محصورا في بقعة معينة وإنما هو ظاهرة قديمة قدم الإنسان وهي تعكس تنوعا وتعددا في المعتقدات.

✓ أغلب هؤلاء المنظرين عندما يعالجون الظاهرة الدينية انطلاقا من خلفياتهم الدينية التي عرفت في المجامع الذي عاشوا فيه، فأغلب النظريات لا تدرس الظاهرة الدينية كظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان ولكن تدرسها من خلال تجربة معينة محدودة جدا.

✓ إن موضوع نشأة الدين والتدين موضوع معقد ومتنوع لا يمكن حصره أو فهمه بشكل اختزالي.

وعموما فإن نظريات نشأة الدين كثيرة ومتنوعة لا يمكن التعرض إلى جميعها في هذا البحث، وإلا فقد أفردت بحوث خاصة ومفصلة في هذا الموضوع*. ومع ذلك تجدر الإشارة إلى أن هذه النظريات لا تزال موضع نقاش وتطوير في المجال الأكاديمي، فهي متعارضة مع بعضها البعض ولذلك لا يمكن الركون إلى واحدة منها.

عن نشأة الدين في نظر الإسلام:

تتلخص رؤية الإسلام لهذه المسألة في قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة)[19] وقوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[20]، ووفقا للقرآن فإن نشأة الدين والتدين قديم قدم الخلق، بل وإن الغاية من خلق الإنسان كانت هي عبادة الله، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[21]، وهذا هو الهدف الأسمى لوجودهم، كما يقدم القرآن الدين أيضا بوصفه تشريعا قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)[22] لذلك أوجب الله على الإنسان السعي للتواصل مع الله والابتعاد عن الخطأ والإثم واتباع الطريق الصحيح للعبادة والمعاملات والأخلاق كما أمر بها من خلال رسله وأنبيائه الذين كلفهم بتبليغ الرسالة.

من جهة أخرى كان آدم وهو أول إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى متدينا بالفطرة (فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[23]، وحتى عندما أرخ القرآن للأقوام السابقة حكى عن عباداتهم ومعتقداتهم حتى وإن كانت منحرفة وقارن بينها وبين عقيدة التوحيد-الإسلام- قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)[24]

وعموما فإن الإسلام يخالف و يرفض جميع النظريات القائلة بالتطور، وبالتالي فإن نظرية تواجد الدين وتطوره تبعا لتطور الطبيعة والبشر نظرية غير معترف بها، حيث نجد أن الإنسان في التصور الإسلامي خلقه الله بأحسن الصور (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)[25] وبعقل كامل وهو الشيء الذي تميز به عن باقي المخلوقات وهو مناط التكليف فيه.

والدين في التصور الإسلامي هو من الله وإلى الله فهو أساس الصلة بين الإله والإنسان والتي بدأت من خلق آدم واستمرت وستستمر إلى آخر الزمن، قال سبحانه وتعالى : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ)[26] وفي كل فترة كان الله يرسل رسله لتبليغ الدين للناس قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)[27].

وبنظرة متأنية في القرآن الكريم نجده يقرر أن الدين واحد عند جميع الأنبياء والمرسلين وأن الدين الموحى به إليهم هو دين التوحيد –الإسلام– ، وقد دل على ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم:

فسيدنا نوح خاطب قومه قائلا : (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[28] وسيدنا إبراهيم (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[29] وعندما حكى القرآن عن سيدنا يعقوب وهو يوصي أبناءه قال (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[30]، وسيدنا يوسف دعا ربه قائلا : (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[31] وسيدنا سليمان عندما دعا ملكة سبأ قال في رسالته لها: (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)[32] وحين أسلمت ملكة سبإ قالت : (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[33]، وسيدنا موسى عندما دعا قومه قال لهم: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ)[34] وعن عيسى عليه السلام يقول الله عز وجل: (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[35] وفرعون عندما أدركه الغرق نطق بها، قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)[36] وعندما حكى القرآن عن الجن جاء فيه أنهم قالوا: (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)[37]

فالدين عند الله واحد قال تعالى : (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)[38] ، جاء بالتدريج عن طريق الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل إلى أن اكتمل مع النبي محمد صبى الله عليه وسلم ودلت على ذلك آيات من القرآن الكريم، قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[39]، وقد لخص النبي صلى الله هذا الأمر وأعطانا مثالا جميلا في الحديث الذي رواه أبو هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ."[40]

عن الدين في شبه الجزيرة العربية :

كانت منطقة شبه الجزيرة العربية تمر بمراحل صعود وهبوط قبل وبعد المسيح، حيث عرفت العديد من الحضارات القديمة مثل سبأ وحمير ومأرب (في الجنوب)، كانت حضارات متقدمة ومساهمة بشدة في التطور الإنساني والحضاري بمعايير عصرها، بينما كان شمال شبه الجزيرة (المسكون بالقبائل العربية) أقل تقدما وحضارة بسبب قسوة الطقس وظروف البيئة الصحراوية والتنقل والترحال الدائم للبدو. ورغم ذلك وبعد ثلاثة قرون من نزول المسيحية فإن شمال شبه الجزيرة العربية كان في تقدم وتحضر مستمر، لكن ما يهمنا والذي سنتعرض له هنا هو الجانب العقدي.

فماهي تمثلات العربي القديم للإله؟ وماذا كان يمثل الدين عند عرب شبه الجزيرة العربية؟ هل هو نتاج لمخيال جماعي ؟ أم هو وليد السياق الجغرافي –خاصة وأن المنطقة كانت تعرف بالتجارة وسكانها كانوا رُحل كثيروا التنقل والسفر وبالتالي كانوا يختلطون بمختلف الأجناس والثقافات والعادات والتقاليد والمعتقدات وطقوس العبادات– ؟ ماهي السياقات النفسية والاجتماعية والسياسية لطبيعة التدين لأهل هذه المنطقة؟ ماهي الديانات التي كانت منتشرة آنذاك ؟

تميزت المنظومة العقائدية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بتنوعها ، وذلك نظرا لتباين الظروف الطبيعية واختلاف مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي فيها، فلم يكن للعرب عقيدة دينية موحدة أو نظام ديني شامل، إنما كانت عبارة عن مزيج من بقايا ديانات بدائية تتمثل في الطوطمية والفيتشية والأرواحية، تحولت بعد ذلك إلى وثنية مادية (عبادة الأصنام)، إضافة إلى ديانات توحيدية تمثلت في اليهودية والمسيحية والحنفية، وقد تناغمت هذه العقائد في محيط اجتماعي متجانس تقبل فيه الجميع هذا التنوع بنوع من التعايش قل نظيره في بقاع الأرض المختلفة وقد ساهم في ذلك الوحدة الثقافية التي أسسها العرب وذلك عن طريق التواصل الدائم الذي كانت تُعرف به المنطقة عبر قنوات مختلفة؛ كالتجارة ونقل البضائع الرعي والبحث الدائم عن الماء والكلأ... والعرب في حقبة ما قبل الإسلام كانوا على احتكاك دائم مع ثقافات مختلفة الشيء الذي جعل من المنطقة حضنا وملاذا لكل الثقافات والديانات.

و ليس من السهل تكوين فكرة شاملة ووافية عن تدين عرب شبه الجزيرة العربية ولا عن تمثلاتهم للإله –أو الآلهة– ولا عن كيفية عبادتهم لها، ذلك لأنه من العسير استخلاص الحقائق التي نبحث عنها من السرديات التاريخية الكثيرة التي وصلتنا فهي فيها من الحقيقة الكثير و لكن تبقى هذه الحقيقة ممزوجة بالأساطير وتفتقر إلى الوضوح والمعلومات الوافية لتكوين صورة متكاملة عن الحياة الدينية قبل الإسلام، فأخبار عرب الجاهلية التي وصلتنا لا تعدو أن تكون أخبارا مضطربة تختلط فيها الحقائق التاريخية بالروايات الخرافية ويسودها بوجه عام الطابع الأسطوري والعنصر القصصي41.

وبتتبعنا للكتب التي أرخت لتاريخ العرب نجد أن كل ما وصلنا من تاريخ أديان العرب وظروف نشأتها وطقوسها وعباداتها... مرتبط بالإسلام ؛ حيث تضمنت هذه الكتب شتيتا من معتقدات العرب و طقوس تدينهم وكانت دائما توضع موضع مقارنة بينها وبين الإسلام و ذلك بالتأصيل لتلك الأديان والبحث عن جذور وعوامل التأثير والتأثر بالدين الإسلامي بعد نزوله.

وعموما فإن كل المعارف التي تخص تاريخ ومعتقدات العرب قبل الإسلام مستمدة بالدرجة الأولى من النصوص الجاهلية بلهجاتها المختلفة ومن الكتابات والنقوش المدونة ببعض اللغات الأعجمية كالآشورية والعبرانية واليونانية واللاتينية ولغة بني إرم، كما يعتبر القرآن الكريم موردا مهما في هذا الباب حيث جاء فيه أسماء بعض الأصنام الكبرى التي عُبدت آنذاك، وجاء تفصيل ذلك في التفاسير والأحاديث النبوية، ويضاف إلى ذلك ما ورد في كتب السير والمغازي وكتب التواريخ التي أرخت لتلك المنطقة.42

وإنه لأمر مؤسف أن تاريخ العرب الذي وصلنا –والذي جاء تدوينه متأخرا– تنقصه كثير من الجوانب، وحتى الذي وصلنا منه لم يخل من النقص والاضطراب الشيء الذي جعلنا نبدي كثيرا من التحفظ في حديثنا عن معتقدات العرب، خاصة وأن المسلمين كانوا يحاولون طمس ومحاربة المعتقدات "الباطلة" وكل مظاهر الشرك التي كانت قبل البعثة.

وإذا اعتبرنا أن الشعر الجاهلي من أقوى و أقدم المصادر التي قد تساعدنا في تصور بعض مظاهر الحياة في تلك الحقبة، فلا يمكن الاعتماد عليه بشكل كبير في الشق الديني وذلك لأنه في بعض الأحيان "أراد مجاراة من دخل في الإسلام في التنصل من أيام الجاهلية ومن التبرؤ منها ومن غض النظر عن ذكر أصنام حرمها الإسلام"43 وينقل جواد علي أيضا عن بعض المستشرقين أنهم ذهبوا إلى أن "رواة الشعر في الإسلام قد أغفلوا أمر الشعر الجاهلي الذي مجد الأصنام والوثنية وأهملوه فلم يروه، فمات، وأن بعضا منهم قد هذب ذلك الشعر وشذبه، فحذف منه كل ما له علاقة بالأصنام والوثنية، ورفع منه أسماء الأصنام وأحل محلها اسم الله حيث يرد اسم الصنم فما فيه اسم الله في الشعر الجاهلي كان اسم صنم في الأصل. "44 وقد فصل في هذا الأمر طه حسين في كتابه "في الشعر الجاهلي" حيث تحدث عن تأثير الدين في انتحال الشعر ونسبته إلى الجاهليين وأفرد فصلا كاملا ذكر فيه أنواع الانتحالات –المرتبطة بالدين– التي طالت الشعر الجاهلي، إذ يقول : "وإذا كان من الحق أن نحتاط في قبول الشعر الذي يظهر فيه تأثير ما للأهواء السياسية، فمن الحق أيضا أن نحتاط في قبول الشعر الذي يظهر فيه تأثير ما للأهواء الدينية. "45 فالشعر الجاهلي

وإن كان مساعدا مهما في هذا الباب غير أن هذا لا يمنعنا من الشك في صحة كل ما جاء فيه فقد طاله ما طاله من انتحال وكذب وتدليس اختلقه الرواة والمؤرخين في صدر الإسلام وما بعده ونسبوه إلى الجاهلية، فكان الغرض من هذا الانتحال في بعض أطواره إثبات صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان منه ما يتصل بتعظيم نسب النبي في قريش ليظهروا علو نسبه وأنه من صفوة بنو هاشم، ومنه ما كان يلجأ إليه المفسرون لتفسير ما في القرآن الكريم من أخبار الأمم أو بالاستشهاد به على بعض من كلمات القرآن لإثبات أنه نزل بلسان عربي مبين... ، وإذا كان طه حسين وغيره* من الباحثين قد حكموا على الشعر الجاهلي بالتدليس والكذب فإننا أيضا لا يمكننا المبالغة في نسبة التشويه والتحريف للشعر الجاهلي كما لا يمكننا إنكاره واستبعاده كليا، وننقل هنا كلاما لبروكلمان حيث قال: "على أنه بالرغم من كل العيوب التي لم يكن منها بد في المصادر القديمة، يبدو أن القصد إلى التشويه والتحريف لم يلعب إلا دورا ثانويا. وقد روى علماء المسلمين أشعارا للجاهليين تشتمل على أسماء الأصنام وعبادتها وإن أسقطوا أيضا أبياتا أخرى لشبهات دينية، وذلك في حالات يبدو أنها قليلة لأن الشعور الديني لم يكن غالبا على نفوس العرب في الجاهلية. "46

ومن جهة أخرى لا يمكن للباحث في هذا الموضوع أن ينكر أن الإسلام ساهم بشكل واضح في المحافظة على كثير من مظاهر التدين التي كانت في الجاهلية —بعد أن حررها من مظاهر الشرك والوثنية–، فلولا أنه قد أبقى على كثير من الطقوس الدينية الجاهلية كشعائر الحج، وتعظيم الأشهر الحرم، وتعظيم يوم الجمعة47... لما عرفنا جانبا كبيرا من حياتهم الدينية والاجتماعية.

تميزت منطقة الجزيرة العربية بكثرة العقائد واختلاف الديانات وتعدد الطقوس يقول جواد علي: "والعرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا لآلهة وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها واسترضاءها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفاتا وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم سلكوا في ذلك جملة مسالك هي ما نسميها في لغاتنا بالأديان "48، وتنوعت الديانات بين اليهودية والمسيحية والمجوسية والصابئة والوثنية، يقول جواد علي: "كانت العرب في الجاهلية على أديان ومذاهب: كان منهم من آمن بالله، وآمن بالتوحيد، وتعبد للأصنام، إذ زعموا أنها تقربهم إليه، وكان منهم من تعبد للأصنام، زاعمين أنها تنفع وتضر، وأنها هي الضارة النافعة. وكان منهم من دان باليهودية والنصرانية ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من يتوقف فلم يعتقد بشيء، ومنهم من تزندق، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة، وببطلان كل شيء بعد الموت... "49 ، وساعد على ذلك الموقع الجغرافي للمنطقة فقد كانت مكة وأهلها أكثر المناطق تأثيرا وتأثرا بحكم أنها كانت بين الشام واليمن وكان فيها بئر زمزم الدي كان يزود قوافل التجارة.

وتشير المصادر إلى أن الديانة السائدة عند عرب الجاهلية هي الوثنية، وتتفق جلها على أن العرب كانوا على دين إبراهيم قبل أن يدخل إليها أبو خزاعة* الأصنام، يقول صاحب الأصنام: "فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيب السائبة، ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة، وهو لُحي بن حارثة ابن عمرو بن عامر الأزدي. وهو أبو خزاعة."50 ويقول الألوسي : "إعلم أن العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي فيهم على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد تلقوها من ولده إسماعيل عليه السلام وهي الحنفية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم"51، حتى و إن سلمنا بصحة هذه الأقوال إلا أننا لا نسلم بإطلاقها، فلا يمكن الجزم كون العرب كانوا كلهم على ديانة إبراهيم، فالمنطقة كانت تشهد تنوعا فسيفسائيا في أشكال التدين. ومن جهة أخرى فإن هذا الزعم لا يتفق مع ما النظريات العلمية والاجتماعية التي ذكرناها، والتي تثبت أن تأثيرات البيئة لا يمكن فصلها عن المكونات الاعتقادية لدى أية جماعة إنسانية. وقد جاء هذا الفهم انطلاقا من تفسير المفسرين للآية: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ)52 ففهم المفسرون من ظاهرها أن الناس "كانوا على الهدى جميعا"53 أي على دين التوحيد ثم ضلوا فتعددت آلهتهم ومعبوداتهم فصاروا مشركين، وهؤلاء حملوا لفظ الأمة في الآية

الكريمة على الملة، لكن هناك من فهم هذه الآية وفسرها بشكل مختلف استنادا على التاريخ القديم ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة كعلم النفس وعلم الاجتماع ، نذكر هنا مثلا صاحب تفسير المنار الذي شذ عن جل المفسرين في شرحه لهذه الآية حيث يقول: "خلق الله الإنسان أمة واحدة; أي: مرتبطا بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضا، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيته جميع ما يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه، كما يستعينون به في بعض شأنهم، وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم: [الإنسان مدني بالطبع](...) فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك، (...) لما كانوا كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي نفسرها يكون على هذا المعنى: أن الناس أمة واحدة لا بد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم في هذه الحياة الدنيا، ويضمن لهم ما به يسعدون في الحياة الأخرى، ولا يمكنهم في هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة أن يتفقوا على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر وتفاوت العقول وحرمانهم من الإلهام الهادي لكل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه، لما كانوا كذلك كان من لطف الله ورحمته بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، يبشرونهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة إذا لزم كل واحد منهم ما حدد له واكتفى بما له من الحق، ولم يعتد على حق غيره، وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ولم ينظروا في العاقبة."54 وهذا التفسير يتفق مع النظريات التي أوردناها سابقا عن نشأة الدين والتي تؤكد أن الوثنية أقدم من التوحيد، وأن عقيدة التوحيد ظهرت بعد أن توسعت مدارك الناس. فكيف اهتدى العربي إلى عبادة هذه الآلهة ؟ وما هي الدوافع والدواعي والأبعاد التي ساهمت في ذلك؟

لقد رأينا كيف أن البعد النفسي شكل أهم دافع للدين، إذ كان الإنسان دائم القلق والحيرة والتبرم لمعرفة حقيقة نفسه كيف جاء؟ ومن أين؟ وما هي حقيقة الموت؟ وهل هناك حياة أخرى بعد الموت؟ ولم يكن المخيال العربي ببعيد عن هذه الأسئلة وعن هذا القلق الوجودي؛ القلق الناتج عن الخوف من المجهول ومن الموت والحرص على البقاء والشعور بالتبعية لمعبود يحميه ويستغيث به، فشعور الضعف الذي اكتنف ذلك الإنسان العربي البسيط الذي عاش في بيئة قاسية ساذجة تعددت فيها مظاهر الكون من جبال وصحارى ودواب وكواكب في السماء... جعله يبحث عن قوة تحميه وتدفع عنه الأذى، الشيء الذي دفعه إلى الخضوع إلى تلك القوى والاعتقاد بها و بالعالم الماورائي، وتجسيد كل هذا على شكل أصنام وأوثان تُعبد، "وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي عبادة كواكب في الأصل. وأن أسماء الأصنام والآلهة وإن تعددت وكثرت، إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي، هو: الشمس والقمر والزهرة. وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو القمر، ومن أم هي الشمس ومن ابن هو الزهرة. وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة عي في الواقع نعوت لها "55 ومن هنا جاء تقديسهم للأحجار والصخور، وخاصة الأحجار النيزكية الهاوية من السماء أو ما كان لونه يختلف عن اللون المعتاد في الصحراء، ولا يخفى على القارئ مكانة الحجر الأسود عند العرب قبل وبعد الإسلام . لقد كان للحجر قدسية خاصة عندهم فكانوا يصنعون منها الأصنام لتكون صورة أو رمزا يذكرهم بالإله أو الآلهة التي يعبدونها. وربط جواد علي هذه العبادة عند الجاهليين ربطا معقولا حيث قارنها بقصة اهتداء سيدنا إبراهيم إلى التوحيد، وكيف أنه في بداية الأمر وبعد أن استنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وأراه الله ملكوت السماوات والأرض، جلس يتأمل في السماء (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)56 فكلما رأى كوكبا قال هذا ربي إلى أن هداه الله إلى التوحيد فقال (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)57، "فيكون قد تعبد لثلاث كواكب قبل أن يهتدي إلى التوحيد، هي القمر والشمس والمشتري أو الزهرة على ما جاء في أقوال المفسرين."58 إنه إذن شعور الإنسان الميثافيزيقي الذي يجعله دائما وفي كل مرة يسعى إلى معرفة الأبعد و الأيقن مما يملك.

تجسدت الأصنام والأوثان التي تعبدها الجاهليون على شكل إنسان (ذكرا كان أم أنثى) أو حيوان أو جماد لا صورة له ، وقد ارتبطت عادة عبادة كل صنم ببعض الحكايات والأساطير التي تسوغ للناس عبادتها59، فمما لا شك فيه أن البشر عموما لا يتبعون أي ممارسات دون إضفاء معنى عليها ، فالأساطير شكلت "آراء البداوة التي تطرق ذهن الجاهلي وتخطر بباله وتختلج في قلبه لحل معقّداته فهي قديمة العهد وبعيدة عن الوضوح ومحتوية على عناصر عدة، إلى حد أنه من المستحيل أن نرى فيها سببا لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية "60. وتعتبر "اللات" و "العزى" و "مناة" أشهر آلهة العرب، وقد ذكرها القرآن الكريم في سياق أوضح فيه صلتها بالملائكة؛ أي أن هذه الآلهة كانت عند العرب رموزا للملائكة، قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (23) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (25) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ(26))61، وكانت العرب تطوف حول الكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترجى62 والغرنوق في اللغة اسم لطائر مائيّ أبيض طويل السَّاق جميل المنظر له قُنْزُعة ذهبيَّة اللون63، وهذا الوصف أقرب للملائكة في الذهن العربي، وذلك لما جاء في وصف الملائكة في الأديان السماوية أنها كانت بأجنحة كبيرة. وقد وصفت هذه الآلهة الثلاث ببنات الله64؛ ويُشار إلى أن هذا الإله (الأب) كان هو هُبل (أو هبعل أو بعل عند الآراميين والكلدانيين)، وكان ذو شأن عظيم عند العرب، فهو كبير الآلهة عندهم ، "فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده"65 .

وبما أن الغرانيق العلى بنات الله تتكون من ذكرين (اللات ومناة) وأنثى واحدة (العزى) فإننا نستطيع أن نستشف جليا عقيدة التثليث عند العرب والتي كانت شبيهة –إلى حد ما – بالثالوث المقدس عند المسيحيين "خصوصا إذا اعتبرنا أن العزى أنثى وهي شبيهة بمريم، والطرفين اللات ومناة مذكران شبيهان بالآب والإبن"66 وقد تعمق الباحث زكريا محمد في هذه المسألة و اعتبر أن عقيدة التثليث كانت رائجة عند الجاهليين واستدل على ذلك بالآيات التي ذكرت الأصنام بترتيب ثلاثي كالآيات التي ذكرناها من سورة النجم أو الآية التي قال الله فيها (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)67 ولعل الأستاذ محمد زكريا وجد صدى هذا الفهم من خلال تفسيره وتحليله للآية الكريمة : (لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ)68 والتي تعني في رأيه أن الله حاصل جمع ثلاثة لا واحدا من الثلاثة69 ، ويدعم هذا التصور الرواية التاريخية التي ساقها ابن الكلبي والتي مفادها أن "الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاث أثافي لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلا آخرا فعل مثل ذلك "70 وهذا السلوك عند الجاهلي يمثل طقسا دينيا حيث أن هناك علاقة تربط الأحجار الثلاثة بالحجر الرابع (الاله) ، وربما هذا الأمر "يفسر جملة (الله ثالث ثلاثة) فهناك أحجار قدر ثلاثة ترمز لبنات الله الثلاثة، في حين أن الحجر الرابع حجر الله هو رمز لتركيبها كلها معا، فالله هو حاصل جمعها معا؛ إنه الثلاثة في واحد، من أجل ذلك فهو يجمع معها ثم يؤخذ وحده. "71، وقد يقول قائل أن العربي القديم جاء بفكرة التثليث في معبوداته من المسيحية كونها كانت منتشرة آنذاك، لكن التحليل النفسي يعتبر هذا الطقس بدائيا وهو انعكاس للحالة النفسية للإنسان خاصة طقس الأحجار الأربعة وقد ربطنا هذا الاستنتاج بما ذهب إليه كارل غوستاف يونغ الذي اعتبر أن عقيدة الرابوع72 أو التربيع من صميم الحالة النفسية للإنسان، وأن العدد أربعة له رمزية أو دلالة موصولة بالدين. غير أنه لا يمكن أن نتجاوز تحفظنا تجاه هذا التفسير الذي يقدمه ك.غ. يونغ وذلك لأنه ينطلق من فكرة التثليث المسيحي، فاعتبر أنه يفتقر إلى جانب مغيب –بما أن اللاوعي أو الخافية يصوغ الآلهة بشكل رباعي–، يقول: "والحق أن الصيغة المسيحية، حتى الصحيحة تقليديا ليست بالصيغة المكتملة تماما، لأن الجانب الدغماطيقي من مبدأ الشر غائب عن الثالوث (...) خلافا للدغماطيق، لا يوجد ثلاثة أوجه للألوهة بل أربعة. ولعلنا نستطيع في يُسر أن نستنتج أن الرابع انما يمثل الشيطان."73، فانطلاقه من المسيحية كأرضية أو كنقطة الوصول إلى هذه النتيجة

يطرح لدينا إشكال محاولة تفسير الظاهرة الدينية انطلاقا من خلفية دينية معينة.

إلى جانب الأصنام والكواكب، اعتقد الجاهلي بوجود الخوافي مثل الأرواح والجن و الملائكة ونسجوا حولها كثيرا من الأساطير والقصص ، وقد شغل هذا الاعتقاد حيزا كبيرا من تفكيرهم، وتمثل ذلك في إيمانهم بأن شيئا ما يحل في بعض الجمادات والنباتات، فقد "اعتبروا الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص مألوهة بالأرواح"74 مما يجعلها قادرة على التأثير في حياة الناس سلبا وإيجابا، فتقربوا إليها بالقرابين والنذور والأدعية.

ففي تقديس الأشجار نذكر قصة شجرة بيعة الرضوان المذكورة في قوله تعالى (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)75 و التي " بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الناس يكثرون قصدها وزيارتها والتبرك بها فخشي أن تُعبد كما عُبدت اللات والعزى فأمر بقطعها وإعدامها فأصبح الناس فلم يروا لها أثرا"76، وفي نفس الإطار روى الأزرقي عن الحارث بن مالك الليثي أنه "كانت لكفار قريش ومن سواهم شجرة عظيمة خضراء يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عندها يوما، قال: فرأينا يوما ونحن نسير مع النبي صلى الله عليه وسلم شجرة عظيمة خضراء فسايرتنا من جانب الطريق فقلنا، يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، الله أكبر قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى، اجعل لنا إله كما لهم آلهة "77 وهذا دليل على أن عقيدة تقديس الأشجار كانت منتشرة في نفوس العرب، وحتى بعد الإسلام ظلت بعض الطقوس الوثنية متجذرة في نفوس العرب.

كما لعب الإيمان بالجن دور الآلهة عندهم، فآمنوا أنها عناصر مخفية تؤذي وتلحق الضرر بمن يؤذيها، لذلك كان من الضروري التقرب إليها و استرضاؤها ليأمنوا شرها*، "وقد تصور العرب الجن كائنات غيبية ومخلوقات غريبة تملأ الأرض وتصوروها تشبه البهائم ذات شعور طويلة، وأحيانا تشبه بعض الحيوانات كالنعام أو الحية ولها قوة غريبة على الظهور والاختفاء بل وتغيير أشكالها وظهورها أحيانا بأشكال إنسانية وإذا اعتدى عليها أحد فإنها تنتقم بمسه فيصبح به جنة أو مجنون وقد يصاب بالأمراض"78 ولذلك كانو إذا خافوا على الرجل الجنون أو التعرض للأرواح الخبيثة حاولوا التغلب على تلك الأرواح وطردها باستعمال أشياء تنفر منها فتهرب كحرقة الحيض وعظام الموتى79، وكانت قبائل من العرب يعبدون الجن فقد ذكر ابن الكلبي أن " بنو مليح من خزاعة –وهم رهط طلحة الطلحات– يعبدون الجن"80 وفي القرآن جاء ذكر لهذه العقيدة عند عرب الجاهلية في كثير من المواضع ، ومن الآيات التي ورد فيها ذلك، قوله تعالى: (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) 81 فأخبر عنهم أنهم جعلوا الجن شركاء في العبادة مع الله (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)82كما جاء فيه أيضا أن قريشا جعلت بين الله وبين الجنة نسبا (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)83 ، و نسج العرب حولها الأساطير و الخرافات، فاعتقدوا أنها قد تتلبس في أنواع كثيرة من الحيوانات من طيور وزواحف وحشرات، ومن الخرافات التي نسجوها حولهم "أن البقر إذا أوردت فلم ترد، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، فتقتحم البقر بعده ويقولون أن الجن تصد البقر عن الماء وأن الشيطان يركب قرني الثور"84 . وقد جعلت هذه العقيدة للجن سلطة ونفوذا فاقت أكبر سلطة الآلهة85، كما اعتقدوا بمصاهرة الإنس مع الجن والتزاوج بينهم86 وتبعا لذلك اعتقدوا بالسحر والكهانة واتخاذ التمائم والتعاويذ كي تبعد عنهم الشر والأذى، فكانوا يعلقون أجزاء من الحيوان على الطفل اعتقادا منهم أن هذه الأجزاء ستخيف الجن وتذكرهم بذلك الحيوان الذي يحتمي به87.

إن عبادة الخوافي عند الجاهلي تنبثق من غريزة الخوف والقلق التي تعتبر أساس الإحساس الديني، ولعل هذا يتبدى من خلال ما كان يمارسه من طقوس اتقاء من شرها احيانا وتقربا منها أحيانا أخرى، فهذا التنوع في التدين عند العرب كان استجابة لقلق نفسي أو ربما إلى حاجة الإنسان اللاشعورية للخضوع لقوة أعلى .

وتفسيرا لما سبق فإننا لا نستبعد تأثير جغرافية المكان في هذا التخبط الديني عند الجاهلي، فالبيئة الصحراوية في المنطقة وندرة

الأشجار و المناطق الخضراء والآبار والعيون، وشعوره تجاه الطبيعة المتدحرج بين الخوف والقلق أحيانا والروعة والإعجاب أحيانا أخرى، جعلت العربي يصبح اتكاليا، يعتمد على معجزات الطبيعة فاتخذ منها معبودات يتوسل إليها في طلب حاجياته، ومالت غريزته إلى المادة أكثر فجعلته يتمثل آلهته ويجعل بينه و بينها واسطة تقربهم إليها زلفى. وقد كان خياله قادرا على توليد الخرافة والأسطورة في غالب الأحيان بشكل تصويري مادي محسوس فكانت فكرتهم عن الأشياء الروحية تأخذ تصورا ماديا ؛ فقد تصوروا الروح في شكل الهامة ، والعمر الطويل في شكل النسر ، والشجاعة في شكل الأسد ، والأمانة في الكلب ، والصبر في الحمار ، والمكر والدهاء في الثعلب ...، وفي معتقدات العرب أن الإنسان إذا أتى خطيئة قد يُمسخ حجرا أو شجرا أو حيوانا جاء في عجائب المخلوقات للقزويني أن "الصفا والمروة كانا اسمي رجل وامرأة زنيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرا فوضعوا كل واحد على الحجر المسمى باسمه لاعتبار الناس"88 وغيرها من الروايات والقصص التي ذكرت في كتب العرب89 .

وإجمالا لما تقدم فإن ما رصدناه من معتقدات العرب وغيرها مما دان به الجاهلي، كانت –من جهة– نتيجة لحاجة نفسية غريزية فردية تعتلي الإنسان في أعماق نفسه وبمعزل عن تجارب الآخرين، فهذا الحس الديني ليس ظاهرة يمكن رصدها من الخارج وإنما هو إحساس أصيل في النفس الإنسانة ،و هو ما فسره رودولف أوتو حين ذكر آلهة العرب والتي اعتبرها مجرد أسماء وإشارات غامضة ومع ذلك أحس بها العربي كآلهة ذات جبروت عظيم وقال أن هذا التعظيم كان نتاج خالص الوعي الديني نفسه90، وقد اعتبر هذا الشعور (أو حس الألوهي كما عبر عنه) "أول عناصر طبيعتنا النفسية، وهو بحاجة إلى من يفطن له خالصا في فرادته (...) إنه ينبجس كسائر العناصر النفسية الأولى جميعها، في الوقت المعين له من ثنايا الذهن البشري النامية والروح، فحسبه يومئذ أن يكون موجودا."91، وتماشيا مع ما تم ذكره فإن معظم الميثولوجية والنفسية والأنثروبولوجية تعترف بأن فكرة التدين تترجم عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس، وإذا رجعنا إلى النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان ترجع دائما إلى ديانة الشعوب البدائية92 الشيء الذي يبرهن عن أصالة التدين في النفس البشرية.

ومن جهة أخرى يمكن اعتبار ذلك التنوع ظاهرة اجتماعية نمت وترعرعت داخل نظام اجتماعي فهي عبارة عن تصورات جمعية تكونت انطلاقا من نقل الأفراد معتقداتهم المنعزلة إلى بعضهم البعض، ومحاولة التعبير عن تجاربهم الخاصة بشكل جمعي، وهو ما يذهب إليه علم الاجتماع حيث يعتبر أن التدين ظاهرة لا رصدها وفهمها بمعزل عن المجتمع، يقول دوركاهيم عند دراسته للمجتمعات البدائية : "إن المجموعة تحقق على نحو منتظم تماثلا فكريا وأخلاقيا (...) كل شيء يبدو مشتركا بين الجميع والحركات مقبولة؛ وترى الجميع يؤدون الحركات نفسها في الأحوال ذاتها، وهذه الامتثالية في السلوك لا تعبر إلا عن امتثالية في الفكر"93 فداخل المجتمع يكبر الدين وينمو وتتنوع طقوسه وتتوحد بين معتنقيه ويتناقل إلى الأجيال المتلاحقة ضمن هذا المجتمع.

وخلاصة القول، فإن النظر للحياة الدينية للعرب قبل الإسلام نظرة ازدراء ونقص، ووسمها بالتوحش والجاهلية والكفر المحض لهو حكم لا يستند إلى أساس علمي، فالعرب قديما كانت لديهم فلسفة دينية عميقة؛ فالدين عندهم كان وليد متطلباتهم النفسية والاجتماعية والحضارية واعتبروه تثبيتا لكيانهم وترسيخا لهويتهم، ولذلك استبسل العربي في الدفاع عن أصنامه وشن من أجلها حروبا استمات فيها لا لشيء إلا لأنه إنسان يريد الدفاع عن معبوداته، وتأصيل كيانه، وتثبيت مواقفه، إيمانا منه أن ما يدين به يعد مقوما من مقومات وجوده.

خلاصة:

لقد شكل الدين إذن نزعة إنسانية وحاجة وجودية اقترنت بالإنسان منذ أن وجد على الأرض ولازمته على مر العصور، ويمكن أن نقول أن التدين حاجة فطرية وغريزة مشتركة حررت الإنسان من قلقه الوجودي وكانت الملجأ والتفسير لكل الأسئلة الوجودية

التي كانت تواجهه، "وما زال الدين يمثل إحدى ركائز الهوية الجمعية لأي مجتمع؛ لأنه يحمل الكثير من تاريخ الأمة المشترك وتفاصيل حياة أفرادها اليومية في الطعام والشراب والملبس والاحتفال، وليست الشعائر والطقوس وإحياء الاحتفالات الدينية إلا تأكيدا على هذا التاريخ المشترك." [94] ، فالدين —وعلى اختلاف الأشكال التي يرتديها– حالة شعورية نفسية داخلية تجعل الإنسان يؤمن بأن هناك ذات علوية —على اختلاف تمثلاتها – تتحكم في قوانين الكون و تهتم بتدبير شؤون حياته، هذا الإيمان والتسليم الفطري أو الشعور بالتبعية كما عبر عنه فيورباخ[95] هو الذي منح الإنسان الاستقرار الروحي ، يقول عبد الجبار الرفاعي: "لكل موجود نمط كماله الذي هو من جنس كينونته، ويتسق مع هوية وجوده. الظمأ الأنطولوجي إنما هو الفقر الوجودي، وارتواء هذا الظمأ إنما هو الغنى الوجودي. أي أن هذا النقص لا يكتمل إلا ببلوغ الكائن البشري طورا وجوديا يضعه في رتبة أعلى في سلم التكامل. الدين هو ذلك السلم الذي يرتقي عبره هذا الكائن صعودا للكمال، ويرتوي من خلاله ظمؤه الوجودي."[96]

الهوامش:

*نقصد في هذا المستوى دراسة الدين من حيث كونه ظاهرة عامة حاضرة في التاريخ الإنساني كله، بعيدا عن تناول دين معين.

[1] Henri Bergson , Les deux sources de la morale et de la religion , PUF, Paris , 8eme édition, 1948, p :55

[2] إيميل دوركهايم، الأشكال الأولية للحياة الدينية –المنظومة الطوطمية في أستراليا- ترجمة رندة بعث ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات– بيروت- ، الطبعة الأولى2019، ص:22.

[3] تظل هذه المؤشرات التي اعتمدها المؤرخون قليلة ومبهمة رغم تعددها فهي عبارة عن: جماجم، وبقايا عظام، أصباغ، أدوات حجرية، صور ورسومات على الصخور ...

[4] ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، الطبعة الأولى 1986-1987م، ج1، ص:18

[5] Voltaire, Essai sur les mœurs et l'esprit des nations, Edition de L.Hachette ,Paris, 1859, Tome 7, p :7

[6] ميرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة سعود المولى، مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت-، الطبعة الأولى 2007 ، ص:39

* Lubbock في كتابه مصادر الحضارة.

[7] أنظر: سامي النشار، النظريات التطورية والمؤهلة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م.

*ينسب هذا المذهب إلى عالمين أولهم تايلور Taylor في كتابه La civilisation primitive ، والثاني سبنسر Spencer في كتابه Principes de sociologie. يدافع الاثنان عن فكرة أن أقدم دين في الوجود هو الاعتقاد بالأرواح وعبادتها، فأولى الالهة عند أصحاب المذهب الحيوي هم الأسلاف.

* ينسب هذا المذهب إلى عالمين هما ماكس مولر Max Muler في كتابه Comparative Mythology وكوهن أدالبيرت Adalbert Kuhn في كتابه L'origine de feu et de la boisson divine .

* ظهرت هذه الكلمة Totem لأول مرة في كتاب Long الهندي وهي مجموعة من العقائد والعبادات الحيوانية والنباتية عند الأمم القديمة

[8] سابينو أكوافيفا وإينزو باتشي، علم الاجتماع الديني الإشكالات والسياقات، ترجمة عز الدين عناية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث،كلمة، الطبعة الأولى 1432هـ/2011م، ص:31

[9] المرجع نفسه، ص: 38

[10] كارل ماركس، فريدريك إنجلز ، حول الدين، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت-لبنان، الطبعة الثانية 1981م، ص:112

[11] فريدريك هيجل، محاضرات فلسفة الدين، الأعمال الكاملة، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، مكتبة دار الكلمة، القاهرة-مصر،(بدون طبعة) ص:27

[12] ولتر ستيس، فلسفة الروح، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت، الطبعة الثالثة 2005م، المجلد الثاني ص:179

[13] المرجع نفسه، ص: 181

[14] Sigmund Freud , Moïse et le monothéisme (1939); Traduit de l'Allemand par: Anne Berman (1948); Une édition électronique, Une publication originalement publiée en 1939, Reproduit par les Éditions Gallimard, 431980, 183 pages, dans la collection " Idées nrf " ,P:

[15] إيريك فروم، الدين والتحليل النفسي ،ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب للطباعة –القاهرة-،(بدون طبعة) صص:16،15

[16] سيغموند فرويد، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان-، الطبعة الرابعة 1998 م، ص:24

[17] سيغموند فرويد، الطوطم والحرام، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت- (بدون طبعة)، ص: 192

[18] Sigmund Freud , L'Avenir d'une illusion , Traduction française par: Marie Bonaparte, (Une édition électronique revue par l'auteur, 1932, Originalement publié en 1927, Réimpression, Paris: Les Presses universitaires de France, 1973, 3è édition), P: 44

* نذكر على سبيل المثال : كتاب نشأة الدين النظريات التطورية والمؤهلة لسامي النشار، دين الإنسان بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني لفراس السواح، الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان لمحمد دراز، علم الأديان مساهمة في التأسيس لميشال مسلان...

[19] الحديث رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، الحديث رقم 1385

[20] سورة الروم، الآية: 29

[21] سورة الذاريات، الآية: 56

[22] سورة الشورى، الآية: 11
[23] سورة البقرة، الآية: 36
[24] سورة الحج الآية: 17
[25] سورة التين، الآية: 4
[26] سورة طه، الآية 121
[27] سورة فاطر، الآية: 24
[28] سورة يونس، الآية: 72
[29] سورة البقرة، الآية 130
[30] سورة البقرة، الآية 132
[31] سورة يوسف، الآية: 101
[32] سورة النمل، الآية 30،31
[33] سورة النمل، الآية: 64
[34] سورة يونس، الآية: 84
[35] سورة آل عمران، الآية: 51
[36] سورة يونس، الآية 90
[37] سورة الجن، الآية14،15
[38] سورة آل عمران، الآية: 19
[39] سورة المائدة، الآية: 4
[40] صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين، الحديث رقم 5961
[41] السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت-، (بدون طبعة) ص:7
[42] أنظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، الطبعة الثانية 1413هـ/1993م، ج6، صص: 12،11.
[43] المرجع نفسه، ج6، ص: 12
[44] المرجع نفسه، ج6، ص: 12
[45] طه حسين، في الشعر الجاهلي، رؤية للنشر والتوزيع-القاهرة-، الطبعة الأولى 2007 ، ص:155
*نذكر هنا على سبيل المثال مرجليوث.
[46] كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف-القاهرة-، الطبعة الخامسة، ج1، ص:66
[47] أنظر: أبو جعفر محمد بن حبيب، المحبر، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة -بيروت-، (بدون طبعة وسنة)، صص309-340
[48] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج:6،ص:5
[49] المرجع السابق، ج6، ص:34
* التحقيقات التاريخية حتى الآن لم تثبت إلى من يعود إدخال هذه المعتقدات والعبادات، وإن كان المؤرخين يركزون هذه الشخصية إلا أن المسألة تعود إلى أبعد من ذلك في الزمان.
[50] هشام بن محمد بن الكلبي، الأصنام، تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية 1925م ، ص:8
[51] محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان،(بدون طبعة)، ج2، ص:194
[52] سورة البقرة، الآية :213
[53] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1419هـ/1998م، ج1، ص: 425
[54] محمد عبده، تفسير المنار، مطبعة المنار-مصر، الطبعة الثانية 1350هـ، ج2، ص:286
[55] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص:50
[56] سورة الأنعام، الآية: 76
[57] سورة الأنعام، الآية: 79
[58] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص: 51
[59] المرجع نفسه، ج6، ص:69
60 محمد عبد المعيد خان، الأساطير العربية قبل الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر- القاهرة، الطبعة الأولى 1937م، ص:12
[61] سورة النجم، الآيات : 19-26
[62] ابن الكلبي، الأصنام، ص: 19
[63] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة، الطبعة الأولى 2008م، الجزء3، مادة غرن، ص: 1213
[64] أنظر: شوقي عبد الحكيم، مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (بدون طبعة و سنة) صص: 32-34
[65] محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح محسن، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1403هـ/ 1983م، ج 1، ص:117
[66] الساسي بن محمد الضيفاوي، ميثولوجيا آلهة العرب قبل الإسلام، المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-المغرب-، الطبعة الأولى 2014، ص:60
[67] سورة نوح، الآية29
[68] سورة المائدة، الآية: 73
[69] أنظر: زكريا محمد، عبادة ايزيس و أوزيريس في مكة الجاهلية، آفاق للنشر والتوزيع –القاهرة-، الطبعة الأولى 2009، ص:89-90
[70] ابن الكلبي، الأصنام، ص:33
[71] زكريا محمد، عبادة إيزيس و أوزريس في مكة الجاهلية، ص: 91

[72] أنظر: كارل غوستاف يونغ، الدين في ضوء علم النفس، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع-دمشق-، الطبعة الأولى 1988، صص: 67-79
[73] المرجع السابق، ص: 76
[74] كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت-، الطبعة الخامسة 1968، ص: 24
[75] سورة الفتح، الآية: 28
[76] ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر-بيروت-،(بدون طبعة) سنة النشر 1397هـ/ 1993م، ج3، ص:325.
[77] الأزرقي، أخبار مكة، ج1، صص: 130،129
* لا زال أثر هذه العقيدة موجودا عند كثير من الشعوب.
[78] صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، مطبعة الإرشاد –بغداد-، الطبعة الرابعة 1968 ،ج1، ص:177
[79] الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، ص:319
[80] ابن الكلبي، الأصنام، ص:34
[81] سورة سبأ، الآية: 41
[82] سورة الأنعام، الآية:100
[83] سورة الصافات، الآية: 158
[84] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج6، ص: 717
[85] المرجع نفسه، ج6، ص: 709
[86] المرجع نفسه، ج6، ص: 714
[87] محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1430هـ/2009م، ص: 226
[88] زكريا بن محمد القزويني، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات –بيروت-، الطبعة الأولى1421هـ/2000م، ص:149
[89] انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج6، صص:806-822. الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج2، صص: 301-345
[90] رودولف أوتو، فكرة القدسي: التقصي عن العامل غير العقلاني في فكرة الإلهي وعن علاقته بالعامل العقلاني، ترجمة جورج خوام، دار المعارف الحكمية، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، ص:152
[91] المرجع نفسه، ص: 154
[92] أنظر: إيميل دوركهايم، الأشكال الأولية للحياة الدينية: المنظومة الطوطمية في أستراليا.
[93] المرجع نفسه، ص: 24
[94] هبة الشريف، ديني ودين الناس: الدين والعلمانية والثورة، العربي للنشر والتوزيع-القاهرة، الطبعة الأولى 2017، ص: 240
[95] لودفيغ فيورباخ، أصل الدين، ترجمة أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1411هـ/1991م، ص: 42
[96] عبد الجبار الرفاعي، الدين والظمأ الأنطولوجي، مركز دراسات فلسفة الدين –بغداد-، الطبعة الثالثة 2018، صص: 17،18